# قضية الإعجاز القرآنى
# وأثرها فى البلاغة

كان القرآن الكريم أساسًا لدراسة كثير من علوم العربية: لغة ونحوا وبلاغة ونقدًا، فقد شغل العرب به منذ أن هبط به الوحى، واستمع إليه الناس. وبعد أن قامت الفتوح الإسلامية، وانتشر الإسلام شرقًا وغربًا، ودخل فيه جمع من الأعاجم وأصحاب الديانات المختلفة، تعرض القرآن لحملة من التشكيك والهجوم.

وكان من أهم ما تعرض له القرآن قديمًا، أن أسلوبه لا يجرى على النمط المألوف من أساليب العرب، بل هو مغاير لكلامهم. وهذا ما حدا بعالم مثل **أبى عبيدة معمر بن المثنى التيمى (ت ٢٠٧ هـ)** أن يتصدى لهذه الدعوى، ويفند هذه الفرية، فيخبرنا أنه ألف كتابه «مجاز القرآن» ليرد به على إبراهيم بن إسماعيل الكاتب، الذى سأله عن قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الصافات ٦٥، «وإنما يقع الوعد والوعيد، بما عرف مثله، وهذا لم يعرف»[1].

ويعنى السائل: كيف يشبه القرآن شجرة الزقوم، برؤوس الشياطين التى لم يرها أحد، وإنما توصف الأشياء بالأوصاف التى نعرفها، وليس بالأوصاف التى نجهلها. فيجيب أبو عبيدة على هذا التساؤل بقوله: «وإنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، وامرؤ القيس يقول:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

---

(١) معجم الأدباء ١٩/ ١٥٨ - ياقوت الحموى - بغداد. وفيات الأعيان ٢ / ١٥٥ - ابن خلكان - القاهرة.

فشبه سنان سيفه بأنياب الغول، وهم لم يروا الغول قط، ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به[1]، أى أن هذا التشبيه جاء حملاً على مذهب العرب فى تسميتهم كل ما يستعظمونه شيطانًا.

ثم يقول أبو عبيدة: وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابًا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه، فعملت كتابى الذى سميته «المجاز».

وكلمة مجاز عند أبى عبيدة تعنى الطرق التى يسلكها القرآن فى تعبيراته، وهذا المعنى أعم بطبيعة الحال من المعنى الذى حدده علماء البلاغة لكلمة «المجاز» فيما بعد.

ونسوق بعض الأمثلة لعلها توضح معنى المجاز عند أبى عبيدة:

ففى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ...﴾ المؤمنون: ٢٨، يقول: «مجازه: إذا علوت على السفينة»[2].

وفى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ النور: ١٥، يقول: «مجازه: تقبلونه ويأخذه بعضكم عن بعض»[3].

وفى قوله تعالى: ﴿... فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ البقرة: ١٧٥، فمجازها: «ما الذى صبرهم على النار، ودعاهم إليها، وليس بتعجب»[4].

وفى قوله تعالى: ﴿... وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا...﴾ البقرة: ١٨٩، مجازها: «أى اطلبوا البر من أهله ووجهه، ولا تطلبوه عند الجهلة المشركين»[5].

---

(١) معجم الأدباء ١٩/ ١٥٨، ١٥٩ - ياقوت الحموى - بغداد.
(٢) مجاز القرآن ٢ / ٥٧ - أبو عبيدة - الخانجى.
(٣) مجاز القرآن ٢ / ٦٤ - أبو عبيدة - الخانجى.
(٤) مجاز القرآن ١ / ٦٤ - أبو عبيدة - الخانجى.
(٥) مجاز القرآن ١ / ٦٨ - أبو عبيدة - الخانجى.

وفى قوله تعالى: ﴿... كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ المائدة: ٧٠، مجازه: «كذبوا فريقًا ويقتلون فريقًا، مقدم ومؤخر»[١].

فكان كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة، أول كتاب يبحث فى أسلوب القرآن، ويوازن بينه وبين كلام العرب، لينتهى من الموازنة إلى أنه نمط من ذلك الكلام. وبعد أن استقر فى أذهان الناس أن ألفاظ القرآن ومعانيه، إنما هى تجرى على نفس النمط الذى تجرى عليه ألفاظ العرب ومعانيهم، طاف بالأذهان سؤال جديد:

إذا كان القرآن عربيًّا، جاريًا على نمط أساليب العرب، ففيم إذن كان الإعجاز؟ وهنا نشط العلماء لإبراز أسباب إعجاز القرآن، وتعددت وجهات النظر، فمن قائل: إن سبب الإعجاز هو ما فيه من تنبُّؤ بأشياء سوف تقع فى المستقبل، ثم وقعت بالفعل، مما يدل على أنه ليس من صنع البشر.

ومنهم من رأى أن سبب الإعجاز، هو الحديث عن التاريخ القديم، والرسول عليه السلام أمى لا يقرأ ولا يكتب، ولا يجالس الرهبان، ولا ممن يمكن أن يستقى منهم هذا التاريخ.

ورأت طائفة ثالثة أن سبب الإعجاز هو أن الله صرف العرب أن يأتوا بمثله، إن كان فى قدرتهم الإتيان بمثله.

ومن العلماء من يرى أن سبب الإعجاز فى القرآن: «ما يحتويه من شريعة باقية خالدة، فهو يخاطب الأجيال كلها، والأجناس كلها: العرب والعجم، والأبيض والأسود، والأحمر والأصفر، فليس ما فيه من الإعجاز خاصًا بالعرب، وإنما إعجازه يعم الجنس البشرى كله، لأنه يخاطب الجميع ويطالب الناس قاطبة بأحكامه، وفيه البينات المثبتة لكل جنس»[٢].

---

(١) مجاز القرآن ١ / ٧٣ - أبو عبيدة - الخانجى.

(٢) المعجزة الكبرى ٩٦ - محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى.

ولكن معظم الباحثين وأهل النظر، رأوا أن سبب الإعجاز إنما يرجع إلى ما فيه من بلاغة ساحرة، وأسلوب فريد، وتأثير عميق، ولكنهم لم يوضحوا أسباب هذه البلاغة، وكيف تكون؟ وإنما اكتفوا بالقول: إن بلاغة القرآن أمر يدرك ولا يعلل، يحس ولا يوصف، شيء كالنغم يسرى إلى النفس ويستقر فى أعماقها، دون أن تكون لدينا القدرة على تحديده وإيضاحه. «فقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع، وهشاشة فى النفس، لا توجد لغيره من الكلام الفصيح، ثم لا نعرف علة لذلك»[1].

فهؤلاء الذين خاطبهم القرآن، كانوا لا يعجبون بشيء ، قدر إعجابهم بحسن البيان وبلاغة القول، وقد رأوا فى القرآن نوعاً من البيان لم يعرفوه من قبل، فانجذبوا إليه واعترفوا بتأثيره وخروا صاغرين أمام بلاغته وحلاوته، فكل كلمة من كلمات القرآن، لها وقعها الخاص فى نفوس المستمعين، وكل عبارة تجتمع من كلمات لها صورة رائعة تصور المعانى كالصورة الكاملة فى تصويرها، وأجزاؤها تعطى صورًا وظلالاً، وتتكون من هذه الصور الجزئية، لوحة كاملة متناسقة، تتسلل إلى المشاعر فتهز الوجدان، وتترك فى القلوب عميق الأثر.

وإذا لاحظنا - بالإضافة إلى ذلك - أن ترتيب آيات القرآن لم يكن بحسب نزول الوحى بها، بل وضعت فى موضعها من السورة التى أمر الوحى بوضعها فى ثناياها، أدركنا مدى الترابط المعنوى الشديد، بين الآيات بعضها ببعض، فى نسق بيانى رائع، فالآية اللاحقة، وكأنها تجيء فى وقت الحاجة إليها؛ ومن ثم كان التناسق القرآنى فى الألفاظ والأنغام، والمعانى والصور.

ولكن بعض العلماء، لم يكن يكتفى بهذه الانطباعات العاطفية عن أسلوب القرآن أو الخوالج النفسية التى تعترى القارئ، أو المستمع إلى القرآن، وإنما الأمر يفتقر إلى تحديد أدق، وتحقيق أشد، للأسباب التى جعلت أسلوب القرآن وبلاغته يفوقان غيره من الأساليب، فهيأوا أنفسهم للبحث عن أسباب بلاغة القرآن، والتنقيب

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ٢٢ - الرمانى - دار المعارف.

عن الأسرار، التى جعلته يكتسب هذا التفوق والامتياز، ويشيع فيه هذا التأثير والانبهار، فحاولوا أن يتلمسوا لاستحسانه بعض العلل والأسباب، ولم يقنعوا بالتذوق الفطرى غير المعلل.

ويذكر ابن النديم أن «واصل بن عطاء، والكسائى، والأخفش، والرؤاسى، ويونس بن حبيب، وقطربا النحوى، والفراء، وأبا عبيدة، والمبرد وابن الأنبارى، والزجّاج، وخلفا ألفوا جميعًا فى معانى القرآن. وأن أبا عبيدة ألف مجاز القرآن، والجاحظ نظم القرآن، وكتاب المسائل فى القرآن، وبشر بن المعتمر تناول متشابه القرآن، والواسطىّ وابن الأخشيد لكل منهما كتاب فى نظم القرآن، وابن الراوندى له كتاب فى الطعن على نظم القرآن [1]. وثمة جهود أخرى بذلت فى تصنيف كتب تناولت القرآن للكشف عن خصائصه، وشرح غريبه، وتأويل مشكله، والتعرف على جمال أسلوبه وبيان أثره فى النفوس، منها ما صنعه ابن قتيبة، والطبرى، والرمانى، وأبو علىٍّ الفارسى، وابن جنى، والباقلانى، والشريف الرضى، وعبد القاهر الجرجانى والزمخشرى، والعلوى، والزركشى، والسيوطى.

وكانت هذه الدراسات من أهم العوامل التى ساعدت على نشأة البلاغة، وأمدتها بفيض زاخر من الملاحظات البيانية، التى أثْرت البحوث البلاغية على مدى القرون. فالوقوف على إعجاز القرآن، وإدراك نظمه، واجتلاء أسراره، لا يقوم إلا على تفهم البلاغة ومعرفة الفصاحة.

وهذا هو ما ذكره لنا أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين «بأن الإنسان إذا ما أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن، من جهة ما خص الله به كتابه من حسن التأليف، وبراعة التراكيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها» [2].

---

(١) الفهرست ١ ، ٥ ، ٥١ ، ٥٧ - ابن النديم.

(٢) الصناعتين ١ أبو هلال العسكرى - دار الفكر العربى.